

النص بين السرقات الأدبية والتناص

د. بشير إبراهيم أبوشوفة

المبحث الأول- (السرقات الأدبية):

معنى السرقة:

السرقة في اللغة: مصدر للفعل سرق، والسارق عند العرب من جاء مُسْتَتِراً إلى حَرْزٍ فأخذ منه ما ليس له، فإن أخذ من ظاهر؛ فهو مُخْتَلِسٌ ومُسْتَلَبٌ ومُنْتَهَبٌ ومُخْتَرَسٌ، فإن مَنَعَ مما في يديه فهو غاصب⁽¹⁾، والسرقة الأدبية- كما يراها د. بدوي طبانة- "هي الأخذ من كلام الغير، وهو أخذ بعض أو بعض اللفظ، سواء أكان ذلك لمعاصر أم قديم، والفرق بينها وبين الإغارة وهي أخذ اللفظ بأسره والمعنى بأسره، أما السرقة فإنها أخذ بعض المعنى أو بعض اللفظ"⁽²⁾.

وقضية السرقات الشعرية قضية قديمة، تناولها النقاد بالشرح والتحليل، وعدادوا أنواعها، وبيّنوا الممدوح والمذموم منها، وقد فطن الشعراء إليها، وحاولوا الابتعاد عنها، بل وعدّوها سبباً وضعفاً في الشاعر، فهذا جرير يدعي السرقة على الفرزدق فيقول:

سَتَعَلَّمُ مَنْ يَصْبِرُ أَبُوهُ قَيْناً
وَمَنْ عُرِفَتْ قَصَائِدُهُ اجْتِلاباً⁽³⁾

ويتهم الفرزدق جريراً بالسرقة فيقول:

إِنَّ اسْتِرَاقَكَ يَا جَرِيرُ قَصَائِدِي
مِثْلُ إِدْعَاءِ سَوَى أَيْبِكَ تَنَقُّلُ⁽⁴⁾

(1) ينظر لسان العرب، ابن منظور، الطبعة الأولى، 1990م، دار صادر، بيروت، لبنان، مجلد 10، مادة (سرق).

(2) معجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة، الطبعة الثالثة، 1988م، دار المنارة، جدة السعودية، ص 275.

(3) ديوان جرير، تحقيق نعمان طه، الطبعة الثالثة، (ب-ت)، دار المعارف، مصر، ص 814.

(4) شرح ديوان الفرزدق، شرح إيليا الحاوي، الطبعة الأولى، 1983م، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ج 2، ص 324.

وقد تنبّه شعراء العصر الجاهلي إلى موضوع السرقة، وجاهدوا بأن يخلصوا أشعارهم من هذه الضعة، فكانوا يتفاحرون بالابتعاد عن هذا العيب، وبسلامة أشعارهم منه، قال طرفة بن العبد:

وَلَا أُغَيِّرُ عَلَى الْأَشْعَارِ أَسْرِئُهَا عَنْهَا عَنَيْتُ وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ سَرَقَا⁽¹⁾

ويقول حسان بن ثابت:

لَا أَسْرِقُ الشُّعْرَاءَ مَا نَطَقُوا بَلْ لَا يُؤَافِقُ شِعْرَهُمْ شِعْرِي⁽²⁾

ويقول الأعشى:

فَمَا أَنَا أَمْ مَا إِنْتَحَلِي الْقَوَا فِي بَعْدِ الْمَشِيبِ كَفَى ذَاكَ عَارَا⁽³⁾

"...والسرقة - أيدك الله - داء قديم وعيب عتيق، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر، ويستمد من ريجته، ويعتمد على معناه ولفظه..."⁽⁴⁾.

أسباب السرقة:

لم أقف على أسباب محددة للسرقة، لكن هناك عوامل ساعدت على السرقة، بقصد أحياناً، وبدون قصد أحياناً أخرى، من تلك العوامل ما عرف بتوارد الخواطر، وهو أن يتشابه نصان من غير أن يعلم صاحب النص اللاحق بصاحب النص السابق، ولا يصنف هذا الأمر من أنواع السرقات، وفي ذلك يقول أبو هلال: "...وقد يقع للمتأخر معنى سبقه إليه المتقدم، من غير أن يلم به، ولكن كما وقع للأول وقع للآخر، وهذا أمر عرفته من نفسي، فلست أمتري فيه، وذلك أي عملت شيئاً من صفة النساء: "سفرن بدوراً وانتقبن أهله"، وظننت أي سبقت إلى جمع هذين التشبيهين في نصف بيت، إلى أن وحدته بعينه لبعض البغداديين، فكثرت تعجبي، وعزمت على أن لا أحكم على المتأخر بالسرقة من المتقدم حكماً حتماً"⁽⁵⁾.

ولعل من أسوأ أنواع السرقة تلك التي ينتحل فيها شاعر لاحق شاعراً متقدماً دون أدنى تغيير، من ذلك ما روي أن عبد الله بن الزبير دخل على معاوية وأنشده:

(5) ديوان طرفة بن العبد، شرحه مهدي ناصر الدين، الطبعة الثالثة 2002م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص57.

(1) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفات، الطبعة الأولى، 2006م، دار صادر، بيروت، لبنان، ج1 ص53.

(2) ديوان الأعشى، الطبعة الأولى، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص84.

(3) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد الجحاوي، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ص214.

(4) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق علي الجحاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى 2006م، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ص218.

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفِ أَحَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرْفِ الْهَيْجَرَانِ إِنْ كَانَ يَعْقِلُ
وَيَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ مِنْ أَنْ تُضَيِّمَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنِ شَفْرَةِ السَّيْفِ مَرَحِلًا

فقال له معاوية: لقد شعرت بعدي يا أبا بكر، ولم يفارق عبد الله المجلس حتى دخل معن بن أوس المزني فأنشده كلمته التي أولها:

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لِأَوْجَلُ عَلَى أَيُّنَا تَعْدُو الْمِينَةَ أَوَّلُ

حتى أتى عليها وفيها ما أنشد عبد الله، فأقبل معاوية على عبد الله وقال له: ألم تخبرني أنهما لك؟ فقال: المعنى لي واللفظ له، وبعد فهو أخي من الرضاعة، وأنا أحق بشعره⁽¹⁾.

إن سعة اطلاع الشاعر وحفظه للمنظوم والمثور، واختزال ذلك في حافظته، تجعله متى أراد أن ينسج شعراً انسابت الكلمات المتناثرة لتشكّل بيتاً أو قصيدة من ذلك المخزون المتجدد الذي لا ينضب.

أنواع السرقة:

تتبع العلماء السرقات وعدّوها وقسموها إلى تقسيمات عديدة، وتلك التقسيمات لا تخرج عن نوعين اثنين: سرقة ظاهرة، وسرقة غير ظاهرة.

أولاً- السرقة الظاهرة:

وهي أخذ المعنى كله، إما مع اللفظ كله، ويسمى نسخاً، وإما مع بعض اللفظ، ويسمى مستخاً، وإما أخذ المعنى وحده، ويسمى سلخاً⁽²⁾.

أ-النسخ: وهو- كما أسلفت- أخذ المعنى واللفظ جميعاً، أو أخذ المعنى، وأكثر اللفظ مأخوذ من نسخ الكتاب، أي: إعادة كتابته أو طبعه، وهو نوعان:

1- ويسمى وقع الحافر على الحافر، وهو أن يتشابه النصان تشابهاً تاماً⁽³⁾، كقول امرئ القيس:

وَقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيئُهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَىٌّ وَتَجْمَلُ⁽⁴⁾

وقول طرفة بن العبد:

(1) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، تقدم علي أبو ملحم، الطبعة الثانية، 1991، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ص332.

(2) ينظر المثل السائر، ابن الأثير، تقدم أحمد الحوفي وبدوي طبانة، الطبعة الأولى، دار نضمة مصر، القاهرة، مصر، ج3، ص222.

(1) ينظر المصدر نفسه، ص230.

(2) ديوان امرئ القيس، مراجعة مصطفى عبد الشافي، الطبعة الخامسة، 2004م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص111.

وَقُوْفًا بِهَا صَحِيحِي عَلَيَّ مَطِيئَهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكَ أَسَىٰ وَتَجَلَّدٌ⁽¹⁾

فالاختلاف بينهما فقط في الكلمة الأخيرة.

وقد كثر هذا النوع من السرقات بين الفرزدق وجرير، وقد يصل الأمر إلى التماثل التام، من ذلك ما روي أن امرأة من عقيل يقال لها: (ليلي)، كان يتحدث إليها الشباب، فدخل الفرزدق إليها، وجعل يحدثها، وأقبل فتى من قومها كانت تألفه، فدخل إليها، فأقبلت عليه وتركت الفرزدق، فغاضه ذلك، فقال للفتى: أتصارعني؟ فقال: ذاك إليك، فقال إليه فلم يلبث أن أخذ الفرزدق فصرعه، وجلس على صدره، فصرط، فوثب الفتى عنه، وقال: يا أبا فراس، هذا مقام العائذ بك، والله ما أردت ما جرى، فقال: ويحك والله، ما بي أنك صرعتني، ولكن كأني بابن الأتان، يعني جريرا وقد بلغه خبري فقال يهجوني:

جلست إلى ليلي لتحظى بقربها فخانك دبر لا يزال يحون

فلو كنت ذا حزم شددت وكاءه كما شد جربان الدلاص قيون

قال: فوالله ما مضى إلا أيام حتى بلغ جريراً الخبر، فقال فيه هذين البيتين، وهذا من أغرب ما يكون في مثل هذا الموضع وأعجبه، ويروى أن الفرزدق وجريراً كانا ينطقان في بعض الأحوال عن ضمير واحد⁽²⁾. وهذه القصة استبعد حصولها وقد تكون من نسج الرواة.

2- وهو أن يؤخذ المعنى وأكثر اللفظ، كقول بعض المتقدمين يمدح معبداً صاحب الغناء:

أجاد طويس والسريجي بعده وما قصبات السبق إلا للمبعد

وقول أبي تمام:

مَحَاسِنُ أَصْنَافِ الْمَعْنِيِّ جَمَّةٌ وَمَا قَصَبَاتُ السَّبْقِ إِلَّا لِمَعْبَدٍ⁽³⁾

ب- المسخ: وهو أخذ المعنى أو بعضه مع تغيير في اللفظ، فإن اختص التغيير بفضيلة كحسن سبك أو اختصار أو إيضاح معنى فهو ممدوح، وإن كان غير ذلك فهو مذموم، فالأول الممدوح كقول بشار:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك الألهج

وقول سلم الخاسر:

من راقب الناس مات غمماً وفاز باللذة الجسور

(3) ديوان طرفة بن العبد، ص 19.

(4) ينظر المثل السائر ص 231.

(1) ينظر المصدر نفسه ص 233.

فلما سمع بشار هذا البيت قال: ذهب ابن الفاعلة ببتي⁽¹⁾.

وأما الثاني المذموم فكقول أبي تمام:

لَوْ حَارَ مُرْتَادُ الْمَيْبَةِ لَمْ يُجِدْ إِلَّا الْفِرَاقَ عَلَى النُّفُوسِ دَلِيلًا

وقول أبي الطيب:

لَوْلَا مُفَارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدْتَ لَهَا الْمَيَايَا إِلَى أُرُوحَانَا سُبُلًا⁽²⁾

وبيت أبي تمام أجدر لسبقه، ومن هذا النوع ما هو قبيح جداً وهو ما اتفق فيه النصان في الوزن والقافية كقول أبي تمام:

مُقِيمُ الظَّنِّ عِنْدَكَ وَالْأَمَانِي وَإِنْ قَلَيْتَ رِكَابِي فِي الْبِلَادِ
وَلَا سَافَرْتُ فِي الْآفَاقِ إِلَّا وَمِنْ حُدُوكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي

وقول المتنبي:

وَإِنِّي عَنْكَ بَعْدَ عَدِّ لَعَادِ وَقَلْبِي عَنْ فِنَائِكَ غَيْرُ غَادِ
مُحِبُّكَ حَيْثُمَا إِنْجَحْتَ رِكَابِي وَضَيْقُكَ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الْبِلَادِ⁽³⁾

أما إن كان البيت الثاني أقل بلاغة فهو مذموم، "... كقول أبي تمام:

هَيْهَاتَ لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَحِيلُ

وقول أبي الطيب:

أَعْدَى الزَّمَانَ سَخَاؤُهُ فَسَخَا بِهِ وَلَقَدْ يَكُونُ بِهِ الزَّمَانُ بَحِيلًا

فإن مصراع أبي تمام أحسن سبكاً من مصراع أبي الطيب، أراد أن يقول: ولقد كان الزمان به بخيلاً فعدل عن الماضي إلى المضارع للوزن⁽⁴⁾.

ج-السلخ: وهو أخذ بعض المعنى، مأخوذ من سلخ جلد الشاة الذي هو بعض منها، وقد تتبع النقاد أنواع السلخ فأوصلها ابن الأثير إلى اثني عشر نوعاً⁽⁵⁾، ويظهر لي أن هذه الأنواع لا تخرج عن ثلاثة أنواع؛ لأن النص الثاني إما أن يكون أبلغ من الأول، أو يكون مثله، أو أبلغ منه:

(2) ينظر الصناعتين ص192.

(3) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة، ص335-336.

(4) ينظر المصدر نفسه، ص336.

(1) المصدر نفسه، ص334-335.

(2) ينظر المثل السائر، ص234.

1- أن يكون النص الثاني أبلغ من النص الأول، كقول أبي تمام:

هُوَ الصُّنْعُ إِنْ يَعَجَلَ فَنَفَعٌ وَإِنْ يَرِثَ فَلَلْرِثُ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ أَنْفَعُ

أخذه أبو الطيب المتنبي فأوضحه بمثال ضربه له، وذلك قوله:

وَمِنْ الْحَيْرِ بَطْءٌ سَبِيكَ عَيَّيَ أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامِ " (1)

ففي بيت المتنبي زيادة وتأكيد للمعنى جعلته الأحسن والأبلغ.

2- أن يكون النصان متساويين، كقول ابن زياد الأعرابي:

وَلَمْ يَكْ أَكْثَرَ الْفَتِيَانِ مَالاً وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعاً

وقول أشجع:

وَلَيْسَ بِأَوْسَعَهُمْ فِي الْغِنَى وَلَكِنْ مَعْرُوفُهُ أَوْسَعُ (2)

فإن المعنى في البيتين واحد.

3- أن يكون النص الأول أبلغ من النص الثاني:

مثال ذلك قول البحرني:

وَإِذَا تَأَلَّقَ فِي النَّدِيِّ كَلَامُهُ الْـ مَصْقُولٌ حَلَّتْ لِسَانَهُ مِنْ عَضْبِهِ

وكقول أبي الطيب:

كَأَنَّ أَلْسِنَهُمْ فِي النَّطْقِ قَدْ جَعَلَتْ عَلَى رِمَاحِهِمْ فِي الطَّعْنِ حَرَصَانَا

فإن أبا الطيب فاته ما أفاده البحرني بلفظي (تألق) و(المصقول) من الاستعارة التخيلية،⁽³⁾ وما يفيد

لفظ (كأن) في بيت أبي الطيب من معنى الشك والريبة، بخلاف بيت البحرني.

ثانياً- السرقة غير الظاهرة:

ويندرج تحتها مجموعة من الأنواع منها:

1- أن يتشابه المعنى الأول والثاني، وذلك كقول الطرماح بن حكيم الطائي:

لَقَدْ زَادَنِي حُبّاً لِنَفْسِي أَنَّنِي بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ أَمْرٍ غَيْرِ طَائِلٍ

أخذ المتنبي هذا المعنى واستخرج منه معنى آخر غيره، إلا أنه شبيه به، فقال:

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَدْمَتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ (1)

(3) المصدر نفسه، ص 263-264.

(4) ينظر الإيضاح، ص 338.

(1) ينظر المصدر نفسه، ص 337-338.

فكلاهما مستبشر بغيض السفية وكرهه.

وكقول جرير:

ولا يمنعك من أرب لحاهم سواء ذو العمامة والخمار

أخذ أبو الطيب المتنبي هذا المعنى فقال:

وَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ فَنَاءٌ كَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ حِضَابٌ (2)

2- النقل: وهو أن ينقل المعنى الأول إلى غير محله، وذلك كقول البحتري:

سَلِبُوا وَأَشْرَقَتِ الدِّمَاءُ عَلَيْهِمْ مُحَمَّرَةً فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يُسَلِبُوا

نقله أبو الطيب إلى وصف السيف فقال:

بيس النجيع عليه وهو مجرد عن غمده فكأنما هو مغمد (3)

3- ومنه أن يكون معنى النص الثاني أشمل من معنى النص الأول، كقول جرير:

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ وَجَدْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابَا

وقول أبي نواس:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد (4)

فإن معنى النص الثاني أشمل من الأول .

4- القلب: وضابطه أن يكون معنى الثاني نقيض المعنى الأول، أي: قلب المعنى إلى عكسه، من

ذلك قول أبي الشيص:

أَجِدُ المِلاَمَةَ فِي هَوَاكِ لَدَيْدَةً حُبًّا لِذِكْرِكَ فَلَيْلُمَنِي اللُّؤْمُ

وقول أبي الطيب:

أَأَجِبُهُ وَأُحِبُّ فِيهِ مِلاَمَةً إِنَّ المِلاَمَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ (5)

5- أن يؤخذ بعض المعنى ويضاف إليه ما يحسنه، كقول الأوددي:

(2) المثل السائر، ص234، وفي ديوان المتنبي "...فهي الشهادة لي بأني كامل". ينظر العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب،

للشيخ ناصيف اليازجي، الطبعة الأولى، 1981م، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص355.

(3) ينظر المثل السائر، ص238.

(4) ينظر الإباضح في علوم البلاغة، ص339-340.

(1) ينظر المصدر نفسه، ص340.

(2) ينظر المصدر نفسه، ص340.

وَتَرَى الطَّيْرَ عَلَى آثَارِنَا رَأْيَ عَيْنٍ ثِقَةً أَنْ سَتْمَارُ⁽¹⁾

وكقول أبي تمام:

وَقَدْ ظَلَّلَتْ عِقْبَانُ أَعْلَامِهِ ضُحًى وَعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدِّمَاءِ نَوَاهِلٍ
أَقَامَتْ مَعَ الرِّيَابِ حَتَّى كَأَنَّهَا مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلِ

فإن الأفوه بقوله رأى عين قريها؛ لأنها إذا بعدت تخيلت، ولم تر، وإنما يكون قريها توقعاً للفريسة، وهذا يؤكد المعنى المقصود، ثم قال: ثقة أن ستمار، فجعلها واثقة بالمديرة، وأما أبو تمام فلم يلم بشيء من ذلك، لكن زاد على الأفوه بقوله: إلا أنها لم تقاتل، ثم بقوله في الدماء: نواهل، ثم بإقامتها مع الريات حتى كأنها من الجيش، وبذلك يتم حسن قوله: إلا أنها لم تقاتل، وهذه الزيادات حسنت قوله، وإن كان قد ترك بعض ما أتى به الأفوه، وهذه الأنواع ونحوها أكثرها مقبولة⁽²⁾.

وقد يخرج حسن التصرف من قبيل الأخذ والاتباع إلى حيز الاختراع والابتداع، وكل ما كان أشد خفاءً كان أقرب إلى القبول، وهذا لا يتم إلا إذا علم بأن الثاني كان على علم بقبول الأول حين أنشأ أبياته، فقد يكون من قبيل توارد الخواطر، من ذلك ما روي عن ابن ميادة عند ما أنشد قوله:

مُفِيدٌ وَمُتَلَفٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُ تَهَكَّلُ وَاهْتَزَّ اهْتِزَّازَ المِهْنَدِ

ف قيل له: أين يذهب بك؟ هذا للحطية، فقال: الآن علمت أي شاعر إذ وافقته على قوله ولم أسمع⁽³⁾، والمفترض في هذا الشأن أن لا يحكم على شاعر بالسرقة ما لم يتأكد ذلك، فيجب الأخذ في الاعتبار توارد الخواطر.

المبحث الثاني- التناص والسرقة:

مما لا شك فيه أن تداخل النصوص وتلاقحها أمرٌ لا بد منه، وتأثر النص وتأثيره لا مناص منه، ولا يمكن إيقافه، ولا تحديد درجة التأثير والتأثر، وقد ظلت النصوص الأدبية- شعرية كانت أو نثرية- عبر العصور الأدبية عرضةً للتأثير والتأثر، دون تشخيص دقيق، أو وصف يعبر عن التغيرات التي تطرأ على النصوص، التي كانت دائماً تتعرض للإغارة والمسوخ من الأدباء، حسب ما تقتضيه أحوالهم، والعصر الذي يعيشون فيه؛ لذلك ظهر ما كنت قد تحدثت عنه، وهو مصطلح السرقات الأدبية، وهو ما عرف لاحقاً بالتناص عند بعض النقاد الغربيين، والذي يجب الانتباه إليه أن مصطلح التناص قد وفد إلى

(3) ينظر ديوان الأفوه الأودي، شرح وتحقيق د محمد التوحي، الطبعة الأولى، 1998م، دار صادر، بيروت، لبنان، ص77.

(4) المصدر نفسه، ص341.

(1) ينظر المصدر نفسه، ص341.

الدراسات النقدية من الغرب، فهو يعد من المصطلحات المستحدثة التي تم التواضع عليها في مجال الدرس الأدبي والنقدي، وبخاصة بعد استفادة الحديث عن البنائية والأسلوبية، وما قدمه من جديد على مستوى الإبداع، أو على مستوى التفسير، وقد أصبح المصطلح أداة كشفية صالحة للتعامل مع النص⁽¹⁾، وتجدد الإشارة إلى أن مصطلح التناص قد وفد إلى الدراسات النقدية العربية من الغرب، وتعد الناقدة البلغارية (جوليا كريستيفا) أول من أطلق مصطلح التناص، عندما نشرت أبحاثها عام 1966م في تحليل هذا المصطلح بصورته الأولية في كتابات (ميخائيل باختين) عن روايات (دستوفيسكي)⁽²⁾. يقوم التناص في الأصل على تداخل النصوص وتساؤلها وتفاعلها؛ إذ لا وجود لنصٍ بحدِّه، وكذلك الأمر بالنسبة لنظرية السرقات الشعرية في أساسها، فهي تقوم على فرضية أنه لا يمكن لأحد أن يعرَى من السرقة والأخذ، سواء أقتصد أم لم يقصد، فهذا الباب لا يسلم منه أحدٌ من الشعراء غالباً؛ لأن التأثير حتميٌّ، ولعلَّ السبب الرئيسي في ذلك هو محفوظ الشاعر من أشعار السابقيين أو المعاصرين، الذي يترك بصمته في كتابات الشاعر بعد أن يتناساه، أضف إلى ذلك ما يستعين به الشاعر من علوم أخرى تُعينه على تنظيمه وإبداعه. وعملية تداخل النصوص وتفاعلها أمر لا مفر منه؛ لأن ذلك من قوانين الإبداع التي لا مفر منها، "كل كتابة أو نقشٍ امتدادٌ لسابقتها، تُثير سجالاً معها، وتنتظر زوداً فعلٍ نشطة في الفهم، تتجاوزها وتستيقها"⁽³⁾، ولا يخفى التداخل والتشابه بين مصطلحي السرقة والتناص، فهما متشابهان، ويظهر أن بين المصطلحين فروقاً دقيقة، منها أن السرقة والتناص كلاهما مدخلان للحكم على أدبية النصِّ وتمييزه، والتناص يُربط على الدوام بالجانب الإبداعي، فيما قد تُحمل السرقات حُمولةً أخلاقيةً واجتماعيةً، تؤدي إلى القُدح والتنقيص والتجريح، أضف إلى ذلك أن السرقة الشعرية تعتمد على المنهج التاريخي التأثري، والسبق الرمزي؛ فاللاحق هو السارق، والأصل الأوّل هو المبدع والنموذج الأجدد، في حين يعتمد التناص على المنهج الوظيفي، ولا يهتم كثيراً بالنصِّ الغائب، كما أن ناقد السرقة الأدبية إنما يسعى إلى استنكار عمل السارق وإدانتته، في حين أن ناقد التناص يقصد إظهار البعد الإبداعي في الإنتاج⁽⁴⁾، ويرى بعض الباحثين أن النقاد العرب

(2) ينظر قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، محمد عبد المطلب، الطبعة الأولى، 1995م، الشركة المصرية العالمية للنشر،

لوجمان، ص 136-

(3) التناص ومصطلح السرقات، أحمد صالح النهي، www.draali.net/dim/articles

(1) الماركسيّة وفلسفة اللغة، "ميخائيل باختين"، ترجمة محمد البكري وبني العيد، الطبعة الأولى، 1986م، دار توبقال الدار البيضاء، المملكة المغربية، ص: 96.

(2) العلاقة بين السرقة الشعرية والتناص، سعيد بكور، الشبكة العنكبوتية، www.alukah.net.

لم يتفقوا على ترجمة المصطلح الإنكليزي (intertextuality)، فبعضهم عزّبه بـ(التناص)، وبعضهم عزّبه بـ(تداخل النصوص)، أو (تعلّق النصوص)، أو (هجرة النصوص)، أو (التنقل النصي)، وغير ذلك، ومصطلح التناص الذي صار حديثاً للرائح والغادي، والذي نسب إلى (جوليا كرسيتيفا) ليس بجديد على الثقافة العربية، فهو فكرة قديمة معروفة في ثقافتنا الأدبية، وهي تعني أن ما نقوله أو نُنشئه من النصوص ليس ابتداءً من العدم، وإنما هو حصيلة من أقوال من سبقونا، إن في اللفظ وإن في المعنى، وقد يأخذ ذلك أشكالاً مختلفة، أُطلق عليها- في نقدنا العربي- تسميات مختلفة؛ فقد يكون سرقة، أو نسخاً، أو قلباً، أو إغارة، أو انتحالاً، أو مُعارضة، أو نقيضة، أو توارّد خواطر، أو تضميناً، أو اقتباساً، أو ما شاكل ذلك من تسميات كثيرة معروفة، ولكلّ منها دلالة الخاصّة⁽¹⁾، والذي يبدو أن السرقات الأدبية والتناص كلاهما يرتبط بهجرة النص الأدبي بشكل مباشر، ويصفان تشابه الألفاظ وتمثلها؛ فلا يمكن الحديث عن هجرة النصوص دون الوقوف على كلا المصطلحين، غير أن مصطلح التناص من الناحية الأخلاقية يبدو أليق وأنسب وأبعد عن الاتهام من مصطلح السرقات، الذي يبدو أوسع وأشمل من التناص؛ لأن التناص هو تماماً يشبه السرقة غير المقصودة، فالسرقات أعم، والتناص أخص، فكل تناص سرقة، وليس كل سرقة تناص.

هجرة النص:

مرت الألفاظ العربية بتاريخ طويل، وأصابها التغير والتبدل، وأثرت وتأثرت بمحيطها، فقد كانت الألفاظ العربية- قبل نزول القرآن الكريم- تتسم بالجزالة والرصانة واستعمال الغريب والوحشي من الكلام، فعندما تقرأ قصيدة أو خطبة جاهلية تشعر بألفاظها تصك الآذان، وتثقل على السمع، وتحتاج لفهمها وفك رموزها إلى الرجوع إلى المعاجم، وقد تحدث الكثير من العلماء عن هذا الموضوع بإسهاب، ولكن بنزول القرآن الكريم على النبي محمد- صلى الله عليه وسلم- تمهدت ألفاظ اللغة، وتخلصت من الغريب الوحشي الذي لازمها طويلاً، فقد كان للقرآن الكريم دور في تخليص اللغة العربية، ممّا شابهها وخالفها من غريب الألفاظ، بل إن القرآن أثرى اللغة بألفاظ جديدة، ومعان لطيفة، لم يعدها العرب من قبل، وكانت محل إعجاب وإكبار، ولعل شهادة الوليد بن المغيرة- على الرغم من عدائه للنبي صلى الله عليه وسلم- خير دليل على ذلك، فنزول القرآن وما كان عليه من إبداع في الأسلوب والنظم، كان المقياس الأدق في اختيار الأحسن من الألفاظ العربية، وأي لفظ أو

(1) في التناص، د.وليد قصاب، الشبكة العنكبوتية، موقع د. وليد قصاب <http://www.alukah.net/Web> /alkassab

جملة لم ترد في القرآن، تظل - غالباً - الأقل حظاً في سلم الفصاحة والبلاغة، وقد أشار بعض العلماء من أمثال: الرماني، والخطابي، وأبي هلال العسكري، إلى تميز القرآن ألفاظاً وجمالاً عما سواه من كلام البشر؛ فجعلوا القرآن في أعلى درجات البلاغة، وما عداه يقع في أسفل السلم البلاغي. وشأن الكلام وديده الإعادة والتكرار، والفضل في هذا الشأن دائماً للأول على من يأتي بعده، حتى قالوا: ما ترك الأول للآخر شيئاً، وكان علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - يقول: لولا أن الكلام يعاد لنفد⁽¹⁾، لكن إذا زاد اللاحق على السابق شيئاً يكون الفضل والمزية له، "إن المتبع إذا تناول معنى فأجاده بأن يختصره إن كان طويلاً، أو يبسطه إن كان كزاً، أو يبينه إن كان غامضاً، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفاسفاً، أو رشيق الوزن إن كان جافياً فهو أولى به من مبتدعه"⁽²⁾، فمتى زاد المتبع على السابق زيادة حسنة فله الفضل في ذلك، ومن حقه أن ينسب إليه، ومن أمثلة زيادة المتبع على المتبع قول الشماخ:

عَرَابَةٌ فَإِشْرَقِي بِدَمِ الْوَتِينِ

"إِذَا بَلَغْتَنِي وَحَطَّطْتَ رَحْلِي

فقال أبو نواس:

لَقَدْ أَصْبَحَتْ عِنْدِي بِالْيَمِينِ

أَقُولُ لِنَاقَتِي إِذْ بَلَغْتَنِي

وَلَا قُلْتُ إِشْرَقِي بِدَمِ الْوَتِينِ

فَلَمْ أَجْعَلِكِ لِلثَّرْبَانِ نَحْرًا

وكرهه فقال:

فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامٌ

وَإِذَا المِطْبُيُّ بِنَا بَلَغْنَ مُحَمَّدًا

فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامٌ"⁽³⁾

قَرَيْنَنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الحِصَى

ففي أبيات أبي نواس زيادة حسنة على بيت الشماخ، فبين البيتين تناص، وذلك للزيادة الحسنة في أبيات أبي نواس.

أما إذا تساوى لفظ اللاحق بلفظ السابق، فالفضل للسابق لسبقه، وللاحق فقط حسن الاتباع، كقول عبدة بن الطيب:

وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلُكُهُ هُلُكُ وَاحِدٍ

(1) ينظر العمدة، ابن رشيق القيرواني، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2001م، ص80.

(2) المصدر نفسه، ص290.

(3) المصدر نفسه، ص291.

أخذه من قول امرئ القيس:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ شَرِيَّتَهَا وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تُسَاقِطُ أَنْفُسًا⁽¹⁾

وإني أرى أن في بيت عبدة بن الطيب زيادة حسنة على بيت امرئ القيس، وهذا التناص محمود يحسب لصالح عبدة.

أما إذا اتبع اللاحق السابق في لفظ ضعيف رديء، فذلك مما هو مستهجن مذموم، كقول أبي تمام:

باشرت أسباب الغنى بمدائح ضربت بأبواب الملوك طبولا

فقال أبو الطيب:

إِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفًا لِدَوْلَةٍ فَنِي النَّاسِ بَوَاقَتْ لَهَا وَطُبُولُ

فأخذ هذه لفظة (طبول) لثلاث تفوته⁽²⁾، وهي - كما ترى - لفظة غير مستساعة في سياقها، وهذا التناص بين الشاعرين غير محمود؛ لأنه أضعف القيمة الجمالية للنص وأنقص من حسنه. وقد بين ابن رشيق القيرواني المعيار الحقيقي للتناص الذي ينبغي أن يطبق على الشعراء متى ما كان بينهم تناص، فقال: "وكانوا يقضون في السرقات أن الشعارين إذا ركبا معنى كان أولاهما به أقدمهما موتاً، وأعلاهما سناً، فإن جمعهما عصر واحد كان ملحقاً بأولاهما بالإحسان، وإن كانا في مرتبة واحدة لهما جميعاً، وإنما هذا فيما سوى المختص الذي حازه قائله، واقتطعه صاحبه، ألا ترى أن الأعشى سبق إلى قوله:

وَفِي كُلِّ عَامٍ أَنْتَ جَاشِمٌ عَزْوَةٌ تَشُدُّ لِأَقْصَاهَا عَزِيمَ عَزَائِكَ
مُورَّتِي مَالاً وَفِي الْحَمْدِ رِفْعَةٌ لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَ

فأخذ النابغة فقال:

شُعَبُ الْعَلَايَاتِ بَيْنَ فُرُوجِهِمْ وَالْمَحْصَنَاتُ عَوَازِبُ الْأَطْهَارِ

وبيت النابغة خير من بيت الأعشى باختصاره، وبما فيه من المناسبة بذكر الشعب بين الفروج، وذكره النساء بعد ذلك، وأخذه الناس من بعده، فلم يغلبه على معناه أحد، ولا شاركه فيه، بل جعل مقتدياً تابعاً، وإن كان مقدماً عليه في حياته، وسابقاً له بمماته⁽¹⁾.

(1) ينظر المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين الأبهسي، الطبعة الأولى، 1994م، دار مكتبة الحياة، بيروت.

لبنان، ج 1، ص 96.

(2) ينظر العمدة، ص 291.

والتناص - باعتباره عملية تأثير وتأثر - لا يكون في الشعر فقط، فقد يكون في النثر أيضاً، يقول ابن رشيق: إن أجل السرقات نظم النثر وحل الشعر، كقول نادب الإسكندر: "حركنا الملك بسكونه"، فتناوله أبو العتاهية فقال:

قَدْ لَعْمَرِي حَكِيَّتَ لِي غُصَصَ الْمَوْتِ وَحَرَّكَتَنِي لَهَا وَسَكَّنَتَا

وقال (أرساطاليس) يندبه: قد كان هذا الشخص واعظاً بليغاً، وما وعظ بكلامه عظة قط أبلغ من موعظته بسكونه"، وقال أبو العتاهية في ذلك:

وَكَاثَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعِظُ مِنْكَ حَيًّا

وقال عيسى عليه السلام:

تعملون السيئات، وترجون أن تجازوا عليها بمثل ما يجازى به أهل الحسنات، أجل لا يجنى الشوك من العنب، فقال ابن عبد القدوس:

إِذَا وَتَرْتَ إِمْرًا فَاحْذَرِ عِدَاوَتَهُ مِنْ يَزْرَعِ الشَّوْكَ لَا يَحْصُدُ بِهِ عِنْبًا

وأخذ الكتاب قولهم "قدمت قبلك" من قول الأقرع بن حابس، ويروى لحاتم:

إِذَا مَا أَتَى يَوْمَ يَفْرُقُ بَيْنَنَا بِمَوْتِ فَكُنْ أَنْتَ الَّذِي تَتَأَخَّرُ

وقولهم "وأتم نعمته عليك" من قول عدي بن الرقاع العاملي:

صَلَّى الْإِلَٰهَ عَلَى إِمْرِيٍّ وَدَعَّعْتُهُ وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ وَزَادَهَا

فما جرى هذا المجرى لم يكن على سارقه جناح عند الخذاق⁽²⁾.

والذي يظهر لي أن التناص بين الألفاظ أمر حتمي الوقوع، فالطبيعة البشرية تتصف على الدوام بالتقليد والمحاكاة، ولا يتوقع من أي نص أن يكون بمعزل عن التأثير والتأثر بين حروفه وكلماته، فطبيعة الحياة البشرية المعاشة واحدة، ومؤثرات الحياة ومعانيها من خير وشر، وحب وكره، وفرح وحزن، إلخ، كلها معانٍ مشتركة بين البشر، وهي مادة الأدب والشعر، فكما هي المعاني مشتركة بين الخلق لا ننكر على الألفاظ تناصها وتشابهاها، يقول الجاحظ: "...وذهب الشَّيْخُ إِلَى استحسانِ المعنى، والمعاني مطروحةٌ في الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ، والبدويُّ والقرويُّ، والمدنيُّ، وأما الشَّأْنُ فِي إقامَةِ الوزن، وتخيُّرِ اللفظ، وسهولةِ المخرج"⁽³⁾.

(1) المصدر نفسه، ص292.

(2) ينظر المصدر نفسه، 292-293.

(1) الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الثانية، 1965، مطبعة باي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ج3، ص131.

خاتمة ونتائج البحث:

ويمكن القول- بعد هذه الرحلة القصيرة إلى النص بين السرقات الأدبية والتناس-: إنه بإمكاننا أن نضع أيدينا على جملة من النقاط منها:

- أن السرقات الأدبية عرفت من العصور الأدبية الأولى, وهي أمر بدهي؛ لاشتراك الناس في المعاني, والتأثير والتأثر بين الخلق, ومصطلح التناس يتداخل مع السرقات الأدبية, ويندرج تحتها تقريباً, مع أن البلغارية (جوليا كريستيفا) ترى أنها أول من استعمل هذا المصطلح, ومصطلح التناس يظهر أليق وأكثر تهذيباً من مصطلح السرقة الذي يعني التعدي على الآخر, وأخذ حاجته, ومن الأسباب المهمة لهجرة النصوص بين العصور الأدبية, هي الطبيعة الفطرية, التي جبل الناس عليها, من حب للتقليد والتجديد معاً, وتوارث الناس للغتهم عامة, وآدابهم بشكل خاص, ولولا أن الكلام يعاد لنفد, أضيف إلى ذلك المؤثرات الخاصة بكل عصر, وما يطرأ عليه من جديد.

- أن اللغة العربية من أكثر لغات العالم اتساعاً وقابلية للتطور والتنوع, فقد تأقلمت مع كل العصور, واستوعبت كل التحولات وكل المؤثرات, وتعاملت مع جميع النصوص, فكانت ألفاظها قابلة للتحويل والهجرة عبر العصور.

مصادر البحث ومراجعته

أولاً- كتب مطبوعة:

- 1- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، تقدم علي أبو ملح، الطبعة الثانية، 1991، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان.
- 2- الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الثانية، 1965، مطبعة بابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر.
- 3- ديوان الأعشى، الطبعة الأولى، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- 4- ديوان الأفسه الأودي، شرح وتحقيق: د محمد التنوخي، الطبعة الأولى، 1998م، دار صادر، بيروت، لبنان.
- 5- ديوان امرئ القيس، مراجعة مصطفى عبد الشافي، الطبعة الخامسة، 2004م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 6- ديوان جرير، تحقيق نعمان طه، الطبعة الثالثة، (ب-ت)، دار المعارف، مصر.
- 7- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفات، الطبعة الأولى، 2006م، دار صادر، بيروت، لبنان.
- 8- ديوان طرفة بن العبد، شرحه مهدي ناصر الدين، الطبعة الثالثة، 2002م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 9- شرح ديوان الفرزدق، شرح إيليا الحاوي، الطبعة الأولى، 1983، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.
- 10- العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، للشيخ ناصيف اليازجي، الطبعة الأولى، 1981م، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- 11- العمدة، ابن رشيق القيرواني، تحقيق عبد الحميد هندراوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
- 12- قضايا الحدائة عند عبد القاهر الجرجاني، محمد عبد المطلب، الطبعة الأولى، 1995م، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوجمان.
- 13- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، 2006م، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
- 14- لسان العرب، ابن منظور، الطبعة الأولى، 1990م، دار صادر، بيروت، لبنان.

- 15- الماركسيّة وفلسفة اللغة، " ميخائيل باختين "، ترجمة محمد البكري ويعني العيد، الطبعة الأولى، 1986م، دار توبقال الدار البيضاء، المملكة المغربية.
- 16- المثل السائر، ابن الأثير، تقديم أحمد الحوفي وبدوي طبانة، الطبعة الأولى، دار نفضة مصر، القاهرة، مصر.
- 17- المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين الأبيشي، الطبعة الأولى، 1994م، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
- 18- معجم البلاغة العربية، بدوي طبانة، الطبعة الثالثة، 1988م، دار المنارة، جدة السعودية.
- 19- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.

ثانياً- مواقع الشبكة العالمية الإنترنت:

- 1- التناص ومصطلح السرقات، أحمد صالح النهمي . www.draali.net/dim/articles
- 2- العلاقة بين السرقة الشعرية والتناص سعيد بكور www.alukah.net
- 3- في التناص، د.وليد قصاب، الشبكة العنكبوتية، موقع د. وليد قصاب: <http://www.alukah.net/Web/alkassab>